اللقاء السادس من لقاءات التفسير
في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الجزء السابع: سورة الأنعام
الآيات من 74 – 83

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

– منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.

– هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد)

/http://www.muslimat.net

– الكمال لله عز وجل، فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد على اله وصحبه أجمعين.

نحمد الله عزّ وجلّ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا، ونسأله سبحانه وتعالى بمنّه وكرمه أن يجعلنا من أهل القرآن ممن صحبه فنفعه، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

نحن لازلنا بفضل الله نتدارس هذا الكتاب العظيم الذي أنزله الله رب العالمين، يُربي به خلقه وأخبرنا فيه عن رسله الكرام، الذين أنعم الله عز وجل بهم على الخليقة، فإنهم منّة الله التي لا تفوقها منّة، لو علم الناس حقيقة حاجتهم للرسل، فهم:

- ضالّين لولا أن الله أرسل الرسل ليدلّوهم
- جاهلين لولا أن الله أرسل الرسل ليُعلّموهم
- مُدنّسة نفوسهم لولا أن الله أرسل الرسل لتزكيتهم
- تائهين لولا أن الله عزّ وجلّ أرسلهم لنا يدلّونا الصّراط المستقيم، ويبعدونا عن الضلال، ويجعلونا بسبب منّة الله من أهل اليقين.

فنسأل الله بمنّه وكرمه أن نكون ممن شهد مع نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم على أن الأنبياء جميعًا أدّوا الرسالة ونصحوا أُممهم وأوقعوا ما أمرهم به ربّهم.

وفي لقائنا اليوم سنتدارس هذه الآيات في سورة الأنعام، نتكلم عن إبراهيم عليه السلام الذي فضّله الله عز وجل على كثير من الرسل، فهو خليل الرحمن وهو أبو الأنبياء، وذريّته بعد نوح كانوا الأنبياء، ومنهم نبيّنا الكريم صلى الله عليه وسلم، ونبيّنا كان أشبه ما يكون به سمتًا ودلّا، وهو خليل ربّنا كما أن إبراهيم –عليه السلام– خليل الله.

وإبراهيم عليه السلام معلوم كم له من المقامات العليّة:

- في التوحيد
- وفي الدعوة إليه
- وفي المحاجّة

فقد أخبر ربّنا العظيم عن هذا النبيّ الكريم ما يجعل حبّه والصّلاة عليه أمرًا مشروعًا تقوله الألسنة وله في القلوب مكان، فإنه صلى الله عليه وعلى نبيّنا محمّد كان له في الدفاع عن التوحيد من مقامات العليّة، حاجّ قومه فكسّر الأصنام وهو فتىً **{يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ}** [الأنبياء: 60].

وحاجّهم فيما سنقرأ في هذه الآيات الكرام، وحاجّ النمرود فدافع عن هذا التوحيد وأظهره بكل الأدلة، وهذه الآيات التي بين أيدينا أول ما نُفكر فيها نريد أن نعرف عقيدتنا في إبراهيم –عليه السلام– وكيف أنه كان يحاجّ قومه ويظهر لهم التوحيد في أكمل صورة عقليّة لتبقى هذه المسألة المهمة على بالهم، وهذا الأمر إذا اتضحّ عادوا إلى رشدهم.

إذن هذه الآيات نعتقد أنها لم تكن شكًّا من إبراهيم –عليه السلام– أبدًا، ويدلّنا على هذا آخر هذا السياق يعني آية 83 لما قال الله عزّ وجلّ بعد تلك المحاجّة كلها قال: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ}**. معنى ذلك أن هذه كانت محاجّة بين إبراهيم عليه السلام وبين قومه، ابتدأها لهم إبراهيم عليه السلام لبيان الحق ولم يقع لإبراهيم –عليه السلام– الشكّ.

وأمّا ما قرأناه في سورة البقرة وما نقرأه ونتلوه من كونه سأل ربه أن يريه مسألة الخلق والقصة معروفة فهل كان ذاك عن شكّ؟ **{قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}** [البقرة: 260] فإن زيادة اليقين مطلب يطلبه الإنسان ولا يُمنع منه، هكذا فهمنا أن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكًّا أبدًا إنما كان هذا منه محاجّة ومجادلة نقصد آية الأنعام، وآيات البقرة كانت منه زيادة اطمئنان ويقين كما أخبرنا ربّ العالمين.

تبتدئ هذه الآيات كما سمعتم بالكلام حول أن الله عزّ وجلّ أرى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات، ومعنى ذلك أنه رأى بعين بصيرته كيف أن السماوات والأرض فيها أدلة وبراهين تدل على ربّ العالمين، كيف أن السماوات والأرض جعلهم الله دليل للمستدلّين، فهذا الملكوت لا يمكن أن يكون خُلق عبثًا بل هو عطيّة للخلق لما كُلِّفوا الإيمان بالغيب، وهل يظنّ الإنسان أن الله عزّ وجلّ العظيم لما كلّفه الإيمان بالغيب تركه بلا دليل يدلّه على الغيب؟!

هذا ما لا يظنّه عاقل في ربّه، بل نحن متيقنين أن ربّ العالمين سبحانه وتعالى لما خلق الخلق أرشدهم، ولما خلق الخلق وأمرهم أن يؤمنوا بالغيب أرشدهم إلى الطريق الذي يؤمنوا به بالغيب، فكان الطريق هو ما سمعنا وعلمنا من ملكوت السماوات والأرض.

فهذه الآية {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} تدلّنا على ذلك أن ربّنا العظيم لا يمكن أن يكلّف هؤلاء الخلق الإيمان بالغيب وليس هناك أدلة تدل على الغيب، فكانت الأدلة التي تدل على الغيب هي ما نُثرت في السماوات والأرض رآها إبراهيم عليه السلام بعينيّ بصيرته.

ولما كان على فطرته السويّة ورأى الآيات الكونية تبيّنت الحجّة، فإن الفطرة السويّة تعلم أن كل مصنوع له صانع وكل موجود له مُوجد، وأن صفة المصنوع تدل على صفة الصانع فرأى إبراهيم عليه السلام وانكشفت له المعرفة، ولما نقرأ في سورة الأعراف –إن شاء الله– سنسمع ربنا يقول: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأعراف: 185]. فقدم لهذا في الأنعام لأنه قد أَرَى إبراهيم عليه السلام ملكوت السماوات والأرض، والملكوت كما تعلمون المقصود به هذا الْمُلك العظيم الذي يدلّ على كمال ربّ العالمين، لما رأى ملكوت السماوات والأرض واستعمل فطرته السويّة لابد أن يكون أثرها ما عُطف هنا في الآية {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} فكانت النتيجة {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ليراها تبصير وفهم فيكون معه العلم الكامل {وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} فيصل إلى اليقين. والمتيقن هو العالم علمًا لا يقبل شك، وهنا المقصود أنه تيقن فعرف ربّه بصفاته وأفعاله وتيقن من استحقاقه للألوهية وحده.

أتى وقت العرض والنقاش لقومه {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} الفاء هذه رتبت هذا الكلام على الذي قبله ولذا لا يمكن أن يكون شكًّا؛ لأنه: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} هذه مترتبة على ما قبلها رأى كوكبًا، والكوكب كما تعلمون من ملكوت السماوات.

إبراهيم عليه السلام يُريد أن يستدلّ على قومه ويتنزّل معهم في المناقشة حتى يصلون أن هذه المعبودات من دون الله لا تستحق العبادة، ربما هنا كان من الواجب أن نعرف أن قوم إبراهيم كانوا يعبدون الكواكب، "صابئة" هم يعبدون الكواكب ويصورون لها أصنامًا، فهناك كسّر الأصنام وهنا أراهم بالجدال أنها لا تستحق العبودية.

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} يعني ستر الليل الأشياء المرئية بظلامه الشديد، بقي أن يرى المصابيح التي زيّن الله بها السماء، فرأى كوكبا {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي}، يعني هو من خلال الآيات يتبيّن أنه كان معه قوم يناقشهم؛ لأنه سيأتي يقول لهم: {يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}، فأكيد أنه كان يناقشهم {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} استفاد من هذه الفرصة كل شيء مخفي لا يظهر وهذا الكوكب في السماء ظاهر، الظاهر أنه رأى كوكب من الكواكب شديد الضوء، ولذا

يقول المفسرين أنه كوكب الزهرة. على كل حال الزهرة أو المشتري ليس هذا المهم، المهم أنه كان قوي في نوره {قَالَ هَٰذَا رَبِّي} فكأن سائلا يسأل: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا} ماذا كان منه؟

كان منه أن {قَالَ هَٰذَا رَبِّي} هذا يعني يشير إلى الكوكب، ربي يقصد على دينكم يعني إبراهيم عليه السلام يبحث مَن ربه، فلما رآه قال: هذا هو.

{هَٰذَا رَبِّي} يعني على تفكيركم ودينكم وهذا معناه أنه أراد استدراج قومه، ابتدأهم بأي شيء؟ بأنه موافق على ما يقولون، ولاحظوا أنه أيضا أشار إلى التوحيد بصورة يعني هذا ربي، وهنا التعريف أتى من طرفين باسم الإشارة، "هذا ربي" هذا يفيد القصر هو يريد رب واحد، استبقى لهم معبود واحد قال هذا ربي كأنه يقول لهم: أنا أريد واحد وهذا الذي تقولون أنتم عنه.

ربي بمعنى خالقي ومدبري وإذن هو يستحق عبادتي، الآن قالها على سبيل الفرض متنزلا معهم جاريًا على عادتهم؛ من أجل أن ينقض اعتقادهم في آخر الأمر، هذا الأمر نحن متأكدين منه لأنه تعالى يقول: {وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} وقرأنا آخر الآيات فعرفنا أن الله عزّ وجلّ جعلها حجّة لإبراهيم على قومه.

{فَلَمَّا أَفَلَ} أتى الآن الدليل {أَفَلَ} بمعنى غاب، أفل النجم أفلت الشمس: بمعنى غابوا، {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} يعني هو استدل بالأفول على عدم استحقاق الآلهية؛ لأن الأفول الغياب، معناه أن هذا المعبود يغيب عن معبوديه والإله هذا ليس شأنه لا بد أن يكون دائماً قريب يسمع من يناديه، لابد أن يكون رقيب فيرى حال عباده، لابد أن يكون مُطّلع فيدبرهم، فكيف يأفل؟! معناه أنه سيكون محجوب عنهم ولن يطّلع عليهم. وهو وهم متفقون أن الأفول معناه الغياب عن العالم، فجعل هذه الصفة التي يعرفونها ويعرفها سببًا لعدم استحقاق هذه المعبودات العبادة، فالأفول نقص وغياب وهذا لا يصلح؛ لأن المعبود عُلم أنه لا يزول، ولأنه صمد لا يَحُول وكيف يُقبل أن يكون إلهًا يحبّ ويعظّم وهو يغيب!

فالشاهد جعل الأفول هو حجته عليهم، فلما غاب ربّهم {قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} والمعنى مفهوم أن الأفول ليس صفة الإله.

ترك الكوكب ورأى القمر {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي} يعني طلع القمر لما رآه بازغًا بعد أفول الكواكب قال هذا ربي، ممكن يحدث في نفس الليلة لأن هناك أوقات يغرب فيها الكوكب ويطلع القمر بالقرب منه وممكن يكون هذا الشيء

آخر الليل أيضًا؛ لأن هناك في أوقات يكون النجم واضحًا ثم يطلع القمر ثم يغيبان وتطلع الشمس؛ لأنه قال: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} والبزوغ ابتداء الشروق، فالقمر أول ابتداءه من الشرق كما أن الشمس أول ابتداءها من الشرق، فلما بزغ يعني جاء من الشرق، وعلى ذلك نقول ربما كان ذلك في نفس الليلة؛ لأنه اختار وقت تكون النجوم فيها ظاهرة أولا ثم يأتي بعدها شروق القمر بزوغ القمر.

الشاهد {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} قال هذا ربي، نفس الأمر وهنا سيكون القمر أكثر ضوء من الكواكب فجعل شدة إضاءته سببا لاختياره.

فلما حصل له نفس الشيء {فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} هنا قصد أن ينبّه قومه أن هناك ربّ وأنه واحد وأنه يهدي، وأن الكواكب لما أفلت ما استحقت والقمر مثلها، هو اتفق معهم على أن هناك ربّ يهدي وهم لا ينكرون عليه أن هناك ربّ، لكنه يُضيق عليهم أن هذا الربّ لا بد أن يكون واحد، ثم يُهيء نفوس القوم أن له ربّ غير الكواكب ويُعَرِّض لهم أنّهم ضالّين.

يعني يقول: {لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} وهم معه يتفقون أنه لا بد أن يكون ربّ وأن الربّ يهدي أيضًا، فأراد أن يدخل في نفوسهم الشكّ {لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} ما قال (لأكونن ضالا) أراد أن يقول أن هناك قوم ضالين وأنه لو ما هداه الله سيضلّ معهم، وهو قد تريّث إلى أفول القمر فاستدلّ على انتفاء الآلهية بالأفول، معناه أنّه كان جَهِدًا في مناقشتهم وبيان الحق، فجعل المشاهدة التي هي أقوى شيء هي الدليل.

ثم انتقل لما بعد ذلك وهو الأوضح، {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً} هذا في الصباح بعد ما أفل القمر {قَالَ هَٰذَا رَبِّي}، معناها كأنه يقول ليس القمر ربّي وليس الكوكب ربّي، لاحظوا هو يريد الآن أن يقول لهم لا بد أن يكون لنا ربًّا واحدًا، فاستفاد التوحيد لما ينقض الذي قبله والذي قبله يعني كأنه ليس هذا وهذا معًا، هم على تعدد الآلهة وهو على توحيد الإله، فبدأهم فقط بفكرة لا بد أنه واحدًا وهم كانوا قابلين هذه الفكرة يسمعون منه. فنقض ربوبية الكواكب والقمر حصرها في الشمس؛ لأنه قال {قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ}، أكبر في الإضاءة وجعلها سببًا لاستحقاق الألوهية.

{فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} معناها أني لا يمكنني أن أقبل عبادة من يغيب، ولا تحاولوا إقناعي وقال هنا: (بريء) بمعنى أنه لا صلة بينهم وبين ما يشركون، الصلة هنا عبادة، وما يشركون سواءً كان يقصد به الكواكب في

السماء أو ما يشركون التي هي على صورتها في الأرض، ولما نسمع كلمة "ما يشركون" نستطيع أن نفهم أن هؤلاء كانوا يعترفون أن هناك الإله العظيم وهناك من يشترك معه.

وفي هذا بيان لقوم النبي صلى الله عليه وسلم: (أنكم تشركون مع الله غيره) من سيكون هؤلاء الذين تشركونهم؟ مهما كانوا لا يستحقوا العبادة، **{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ}** يعني من عبادة الكواكب أو الأصنام؛ لأنها لا تستحق أبدًا أن تُعظم ولا أن يُلجأ إليها ولا أن يُعتمد عليها، فإنها تسير في مسار لا تخلفه، وتظهر وتغيب فتُدَبَّر ولا بد من مُدَبِّر لها.

فقال: **{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}** معناها إني بريء ومن براءتي **{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}**، فالذي برأ من الشرك لا بد أن يوجه وجهه لرب العالمين، فمعناها أنه يقول أنا صرفت وجهي إلى جهة الله وهنا يعني ملمح لطيف كأن عبدًا استقبل بوجهه شيء وأعطى ظهره لشيء، فإعراضه عن المعبودات من دون الله بقصد إفراد الله كأنه أعطى ظهره للمعبودات من دون الله وأقبل بوجهه على الله، وهذا يعني نلمحه في كون أن هناك قبلة للمسلمين وهي قيام للناس بها يقومون، لماذا؟ لأن هذه القبلة كان فيها صورة الإقبال على الله وإفراده بالتوحيد ونقصده وننصرف عن غيره نعطي ظهرنا لكل أحد غيره.

فكم لله في هذا الشرع من أسرار وكم للأفعال الحسيّة من دلالات معنوية لو سمت النفس لشعرت بها وأحست!

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} وهو يريد أن يشير هنا أن الكواكب الموجودة في السماء والأصنام الموجودة في الأرض هذه لم تخرج عن أن تكون من مخلوقات الله فهي مفطورة لله.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا} حنيفًا يعني مائلاً عن الشرك مقبل على التوحيد، فقال: **{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** فنفى عن نفسه أن يكون له أي صلة بالشرك وأهله، فلما تبرأ من أصنامهم أولاً تبرأ من القوم ثانيًا.

وفي الآية من دلائل التوحيد ما فيها، لكن نريد أن نصل إلى حالة قومه الآن لما أظهر لهم هذه الحقيقة، هو لما كلمهم وخاطبهم وقال هذا ربي وهذا ربي مناظرةً لقومه؛ من أجل أن يقيم عليهم الحجة، كان في هذه الحال كلها موقن أن ألوهية هذه الأشياء ليست بشيء؛ لأن الله قد أراه ملكوت السماوات والأرض التي فيها دلائل على وجود الصانع وعلى وحدانيته، واستدل لهم بأن هذا الصانع لا يمكن أن يكون آفلاً وأن الهداية تطلب منه ليصل الإنسان إليه.

وبعدما حاجهم هذا كله وأعلن لهم التوحيد أتوا هم يحاجونه أي يريدون أن يأتوا بحجج تدل على ضلاله، وكما اتفقنا أن ما نعتقد في إبراهيم عليه السلام أنه قام مقامات عظيمة في المحاجّة عن التوحيد لما حاجّ النمرود، ولما {قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [الأنبياء: 52] وغير هذه من المحاجّة.

هو كان له مقامات عظيمة في المحاجة الآن هم يحاجونه وحاجه قومه فرد عليهم: {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} كيف تحاجوني في الله؟ كيف يقع منكم هذا {وَقَدْ هَدَانِ} وهذه حاله يؤكد لهم إنكاره عليهم، كأنه يقول لهم لا فائدة من محاجّتكم لي، لا جدوى، بعد أن هداني الله إلى الحق كيف تظنون أن انتقل من الحق وآتيكم؟!

فهو يخاطبهم وينزلهم منزلة من عرف أن الله هداه، يعني كأنه يقول لهم أنتم تعلمون أن الله هداني لكنكم لا تريدون أن تتركوا ما أنتم عليه من باطل، وهم يخوفوه خوفوه فكان جوابه: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} ربي هداني وربي يحفظني، ما قال: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} إلا أنهم لما حاجّوه بالتوحيد وخوفوه لابد أن يكونوا خوفوه بطش آلهتهم قالوا له ستمسّك بسوء، ولذلك هو أجاب فقال: {وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا}، يعني هو لما نفى أن يكون خائفًا من الضرر وربما يتوهم أحد أنه لا يخاف شيئا أبدًا فاستدرك قال: لكني أخاف مشيئة ربي، يعني ربما شاء ربي شيئًا هذا الذي أخافه، وهنا يزيد إظهار التوحيد ويزيد بيانًا لما في قلبه وأنه يخشى ربّه، وأن ربّه هو الذي يستحق أن يخشى.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} فكأنهم يقولون له يعني كيف يشاء ربّك شيء تخافه وأنت تقول أنك قائم بمرضاته مؤيد لدينه فهو يرد عليهم: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} يعني ربنا أعلم متى ينزل علي الخير ومتى يبتليني بالضرّ، وإن كنت عبده وناصر دينه لكن هو الحكيم، متى يلحق بي الضر ومتى يلحق بي النفع.

وهذا مقام أدب من إبراهيم عليه السلام مع الله عزّ وجلّ؛ لأنه كما هو معلوم لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون قال: {وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} ماذا يريد منهم أن يتذكروا؟ كأنه يقول لهم: أفلا تعتبرون أيها الجهلة فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه! كيف تعبدون صور مصورة أو خشب منحوت أو كواكب في السماء ما تقدر لا على ضركم ولا على نفعكم وما تفعل شيئًا ولا عندها عقل!! وتتركون عبادة من خلقكم وخلقها وخلق كل شيء وهو بيده الخير وله القدرة على كل شيء والعالم كله بيديه وهو عالم بكل شيء.

فهنا يوبخهم على ذلك كيف لاتتذكرون والأدلة تامة الوضوح، لا بد أن تفكروا في صفات الإله سبحانه وتعالى وفي صفات هذه التي أقمتموها مقام الله.

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} يعني هو يقول لهم أنتم تخوفوني لا أخاف ما تشركون به {وَكَيْفَ أَخَافُ} كأنه يقول عندي سبب يجعلني لا أخاف من آلهتكم وهي أنها لا تملك ولا تعلم.

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ} فيتعجب منهم أنتم ما تخافوا من رب العالمين وأنتم تروا سلطانه وشدة بطشه، كيف يعني هذا؟! وتريدون مني أن أخاف من آلهتكم! وهي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر.

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} يعني الله ما أخبركم أن هذه الأصنام التي عبدتموها أو الكواكب التي تعبدتم لها ما أخبركم أنها إلهكم لم يأمركم بعبادتها فلا حجّة لكم.

بعدما تعجب قال لهم: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} والفريقين هنا هو وقومه أطلق على نفسه فريق هو ومن تبعه إلى قيام الساعة وهناك الفريق الثاني وهم أهل الباطل وهو قد كان أمة صلى الله عليه وسلم فإن صفات الخير التي اجتمعت فيه شأنها أن تكون موزعة على أمة لكثرتها وجلاءها.

فأتى الجواب من رب العالمين لما سأل سؤال استنكاري: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}؟ كأنه يقول أجيبوني أنتم أي الفريقين؟!

فرد الله عزّ وجلّ فقال: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ}، لم يلبسوا: بمعنى يخلطوا، إيمانهم بظلم: وهو هنا الشرك، فلازال يكلمهم عن فطرتهم أن وضع الأشياء في غير مواضعها لا تقبلها النفس.

{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ} في الدنيا والآخرة، آمنين في الدنيا بالإيمان والتوحيد، وآمنين في الآخرة بالنجاة من عذاب النار.

إذن {الَّذِينَ آمَنُوا} ولم يخلطوا إيمانهم بشرك أولئك لهم الأمن في الدنيا والآخرة {وَهُم مُّهْتَدُونَ} تتم لهم الهداية في الدنيا والآخرة فيهتدون هنا إلى الصراط المستقيم فلا يختلط عليهم، ويهتدون في الآخرة إلى منازلهم أعظم من اهتدائهم إلى منازلهم في الدنيا.

وهذا من عظيم فضل الله بأهل التوحيد فإنه قد أمنهم وطمنهم وبيّن لهم الطريق، وأرشدهم كيف يطلبون الهداية إليه فهؤلاء أحقّ بأن يكونوا من أهل الأمان وأبعد عن الخوف.

وعلى كل حال لهؤلاء سيرة عطرة **{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** لهم سيرة عطرة فمع توحيدهم هُم القوم الذي إذا أُعطوا شَكروا وإذا مُنعوا صبروا وإذا ظَلموا استغفروا وإذا ظُلموا غفروا ففي مسلكهم في الحياة يظهر قوة إيمانهم بالله، فهم مهتدون في جميع شأنهم من هداية رب العالمين.

نسأل الله بمنّه وكرمه أن يجعلنا ممن آمن ولم يُلبس إيمانهم بظلم فألبسته التقوى وأرشدته إلى الخير وجعلت له الهداية في الدنيا والآخرة، والأمن في الدنيا والآخرة.

لازلنا نطلب مِن ربّ العالمين أن يجعلنا شهودًا مع نبينا الكريم نشهد أن إبراهيم وفّى، جادل عن الحق وأظهره، فتبرّأ مِن الشرك وأهله، فأصاب سبيل الرشاد، وسلك طريق النجاة، ونرجو أن نكون ممن له أعظم الحظ في هذه الصفات، والحمدلله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.